مجلة أبعاد/ مختبر الأبعاد القيمية للتحوّلات الفكرية والسياسية بالجزائر
جامعة وهران2 – المجلد 07/ العدد 1 – 30 جوان 2020
ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

حدود الحضور الإ يتيقي في التجربة الجمالية والفنية

The boundaries of the ethical presence in esthetic and artistic experience

د.خديم أسماء* [1]

asma.khedime@univ-mascara.dz

[1] كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة معسكر، الجزائر

****

تاريخ الإرسال: 2020/03/11 | تاريخ القبول: 2020/03/18 | تاريخ النشر: 2020/06/30

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى مقاربة العلاقة بين الجمال والفن من جهة والأخلاق من جهة أخرى، حيث تم الربط بينهما عبر تاريخ الفلسفة من أجل توجيه الإنتاج الفني نحو أهداف قيمية تضفي عليه الكثير من المصداقية. فاتصاله بالمنفعة يجعله مبررا من الناحية العملية كما يتيح ارتباط الفن بالأخلاق للإنسان إمكانية تقييم الأعمال الفنية وكذا الحكم عليها. في مقابل هذه الرؤية يرفض كانط ربط الفن بأي غرض أو تبعية، فهو مستقل بذاته لا يحتاج إلى ما يبرره أو يضفي عليه القيمة باعتباره يحمل قيمته في طبيعته نفسها، كما يميز بين الحكم الجمالي والحكم الأخلاقي حيث يكون الأول ذاتيا يعبر عن الشعور بموضوعات الجمال، بينما يملك الثاني طبيعة موضوعية في صياغته العقلية للموضوعات الإيتيقية. وتوصلنا في الأخير إلى أنه ورغم اختلافهما من حيث البناء والأسس إلا أنهما يتجهان سويا نحو تربية وتهذيب الطبيعة العفوية للسلوك الإنساني.

الكلمات المفتاحية: الفن؛ الجمال؛ الأخلاق؛ التجربة الفنية؛ الغائية

Abstract:

This study aims to the relationship between beauty and art on the one hand and ethics on the other, as they are linked Throughout the history of philosophy in order to guide artistic production toward valuable goals that give it a lot of credibility. His communication with utility makes him practically justified and the association of art with ethics allows human beings to evaluate and judge works of art. In contrast to this vision, he refuses to associate art with any purpose or subordination, as he is self-independant, neither justified nor valued as

* المؤلف المرسل:

having a value in his own nature, nor distinguishes between esthetic and moral governance where the former is self-expressed as a sense of beauty. The second has an objective nature in its mental formulation of the ethical subjects. We finally found that, although they were different in terms of construction and foundations, they were working together to raise and refine the spontaneous nature of human behavior

Keywords: art; beauty; ethics; artistic experience; finality.

مقدمة:

تعدّدت مواقف الفلاسفة بخصوص طبيعة الحكم الجمالي سواء من حيث مصدره إن كان ذاتيا بردّه إلى ملكات الإنسان، أو موضوعيا في اتصاله بموضوع الجمال نفسه وما يصدر عنه من تأثير على الذات. في حين أسسه البعض الآخر على أرضية ذاتية وموضوعية في الآن نفسه حيث يستمد شروطه الموضوعية والخارجية (خارج حدود الذات) من مواضيع الجمال المتعددة، والتي تختلف أيضا في درجة تأثيرها على المتلقي فهناك ما يترك أثره، بينما يكون بعضها عابرا دون أي تأثير وهنا يتحدد الجانب الذاتي من المسألة فينتج لنا موضوعا جماليا يستطيع تطويع ملكة الحكم الإستطيقي وذاتا تتلقى وتنفعل تجاه ذلك الموضوع.

ومن جهة أخرى اختلفت التصورات الفلسفية في الأبعاد القيمية للأحكام الجمالية خاصة في بعدها الإيتيقي، حيث ربطها القدماء بالأخلاق على اعتبار أن كل من الجمال والفن ينزعان نحو ما هو أخلاقي وتربوي، وعلى خلاف ذلك اعتبر إيمانويل كانط Emmanuel Kant (1724-1804) أن الحكم الجمالي مستقل تماما عن أية تبعية بما في ذلك تبعيته للأخلاق. ما الذي يبرر استقلالية التجربة الجمالية -في بنائها -عن مبدأ الأخلاقية؟

وقد وضعنا الفرضيتين التاليتين:

- **تقتضي نزاهة التجربة الجمالية ضرورة تحريرها من كل تبعية حتى تلك التي تربطها بالأخلاق، لأن ذلك يجعلها غير مشروطة بغيرها ولها وجود قائم بذاته دون حاجتها لسند قيمي ترتكز إليه.**

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

- **لا ينقص ارتباط الجمال بالأخلاق من قيمته كما لا يُثني من قوة حضوره، بل على العكس من ذلك يحقق البعد الأخلاقي للتجربة الجمالية والفنية غايات إنسانية وحضارية من شأنها تحرير الفن من الخصوصية وإضفاء طابع الكونية عليه.**

1. طبيعة وموضوعات ملكة الحكم من منظور كانط:

تتميز الفلسفة الكانطية بثراء جهازها المفاهيمي، وقدرتها على استيعاب أكبر قدر من المعاني حتى ضمن المفهوم الواحد، وهذا يعود إلى غنى اللغة الألمانية من ناحية، وحرص كانط على استثمار المفاهيم بشكل دقيق وعلمي من ناحية أخرى. ومثل هذا التأكيد مبعثه القناعة التي انطلق منها كغيره من الفلاسفة، بأن سلامة اللغة من سلامة الفكر، وبشكل خاص مخاوفه من الوقوع في أغلاط الماضي كتلك التي طالت البحث الميتافيزيقي. من سوء استخدام للغة وشساعة دلالة اللفظ التي توسع من دائرة المعنى فيبدو غامضا مبهما، هذا فضلا عن غياب مجال الفهم نفسه.

لم يخرج كانط عن اهتماماته، بل ازداد عمقا فيها وما اختياره لمجال الجمال إلا امتدادا للبحث الميتافيزيقي الذي شغله لمدة طويلة. وهذا الذي جعل العديد من الفلاسفة يؤمن بأن كل ميتافيزيقا تتضمن على الأقل فلسفة للجمال، فالمشتغل بالميتافيزيقا ينغمس في تفسيراته للوجود حتى يستشعر حسا جماليا خاصاً.[1] أو بمعنى أدق أنه يبدأ أولا بدراسة جوهر الأشياء وكذا طرق معرفة هذا الجوهر، وأي تعريف للوجود يحتوي بالضرورة على نوع من الجمال؛ ذلك أنه يؤسس تسلسلاً بين الموجودات بالقيمة نفسها التي يحملها.[2] وفي محاولة منه لتصحيح الأوضاع اشتغل صاحب النقد على إضفاء العلمية على المبحث الميتافيزيقي، بوضع قوانين لها لتحريرها من القدَر الدوغمائي الذي أحاطها به الفلاسفة، عندما وضعوا لمفهوم الحقيقة دلالة مفارقة أقرب إلى الغيب منها إلى العلم. وقدم هو البديل في نظرية الصور الخالصة للفهم التي أصلحت مفهوم الحقيقة وفق تصور الفهم نفسه وليس خارجاً عنه.[3]

إذا رجعنا إلى عصر كانط المشبّع بروح العلم والأنوار، نجد أن ذلك الجو قد غيّر حياة الإنسان جذريا، كما أعطاه وسائل التعبير عن عظمته من خلال اختراقه لعالم

[1] Emile Krantz , Essai sur l'esthétique de Descartes , librairie Germer Baillière , Paris, 1882, P:03.
[2] Ibidem.
[3] Ibid , P:16.

الطبيعة من جهة وفوق الطبيعة من جهة أخرى. وبعد رحلة طويلة من التغييب والآلية (النظر إلى الإنسان كآلة)، جاءت فلسفة القرن 18 لتحيي إنسانيته وذلك بالاهتمام به في جميع جوانب حياته: المعرفة، الأخلاق والسياسة، والجمال.[1] لقد وجه هذا القرن اهتمامه لكل شيء، وتغلغل حتى إلى العناصر الباطنة للأشياء والذوات والأسئلة والأحداث. ولم يترك انشغالا بشريا إلا وطرقه؛ ورغبة من العقل في فك الرموز وقراءة أسرار الذات وكشف مواطن عديدة قد تم تغييبها في عصور مضت، كالأحاسيس وطرق التعبير عنها، اتخذ من الشعر والآداب والفنون فضلا عن الفلسفة والعلوم، منافذا ليتنفس ويرضي فضوله وحاجته الدائمة للمعرفة.

بالنظر إلى الأرضية الأنوارية التي انطلق منها كانط، كانت ألمانيا ملاذ الشعر في القرن الثامن عشر وذلك لأنها طبيعيا شاعرية كما وصفها الأستاذ فيكتور كوزان Victor Cousin، فقد عرفت منذ الإصلاحات والنهضة أشعار كبار الشعراء أمثال كلوبستوك Klopstock، شيلر Schiller وجوته Goethe.[2] إن هذا الجو المفعم بالشاعرية والجمال كان مسبوقا بروح التحرر والبحث عن مواطن الجمال حيثما كانت، وكان ذلك هو أحد هموم وانشغالات كانط.

لم يكن القرن الثامن عشر هو الأول من طُرح فيه السؤال: ما الجميل؟ لكنه مع ذلك قام بتحليله ودراسته من أجل استخلاص علم صارم يتضمن قواعداً ومبادئ خاصة، هو علم الجمال.[3] لقد انشغل كانط بالجمال إلى جانب انشغاله بالمعرفة، ولم يكن من الأوائل الذين بحثوا في الجمال إذ سبقه في ذلك كثيرين، من أمثال أفلاطون ولايبنيز Leibnitz وباومغارتن *Baumgarten وغيرهم ممن خاضوا في ذلك المجال. وقد شق كانط لنفسه طريقا يستفيد فيه من آراء السابقين من أجل تجاوزهم وإيجاد الحلول للمتعارضات القائمة، وكان له ذلك بأن جمع أو وفّق بين عقلانية باومغارتن

[1] فرانكلين – ل- باومر، الفكر الأوربي الحديث القرن 17، تر: أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، جمهورية مصر العربية، 1987، ص: 106 .

[2] Victor Cousin , Cours de l'histoire de la philosophie du 18eme siècle ,Tome 01, Pichon et Didier, éditeurs, Paris, 1829 , P :17 .

[3] Ibid , P :28.

*ألكسندر غوتليب باومغارتن (1714 -1762) أول من قال بعلم الجمال كعلمٍ مستقلٍ عن باقي العلوم وأطلق عليه اسم إستيطيقا Aesthetica وهو عنوان أشهر مؤلفاته، والذي اعتمده كانط في تدريسه.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

Baumgarten وحسية بوركه Burke[1] . ومع هذا نجده يُبقي على فكرة باومغارتن في الجمال إذ يعتبره الكمال حين نحس به، إلا أنه أضاف إليه صفة الغائية، من ناحية أخرى يعلي كانط من شأن البحث الجمالي وذلك بالبحث في الشروط الأولية للحكم بالجميل أو حكم الذوق، في حين يعتبره باومغارتن أدنى درجة من المعرفة المنطقية التي يكون الموضوع فيها أكثر وضوحا وقابلية للفهم.[2] وعلى غرار بحثه في العلم الطبيعي والأخلاق، عكف كانط على البحث في الجمال حيث كتب إلى رينهولد K.L.Reinhold يقول:" أنا مشغول بنقد الذوق، وإني أكتشف في مجاله نوعا من المبادئ القبلية مختلفا عن المبادئ القبلية السابق لي بيانها. ذلك أن ملكات الروح ثلاث: ملكة المعرفة، والشعور باللذة والألم، وملكة الرغبة (الإرادة). وقد وجدت مبادئ قبلية بالنسبة إلى الملكة الأولى وذلك في نقد العقل المحض (النظري)، وبالنسبة إلى الملكة الثالثة في نقد العقل العملي."[3] وهذا ما يُسميه بالبحث الترانسندنتالي أي استخراج المبادئ القبلية لكل ملكة بمعزل عن التجربة، ثم يستأنف قائلاً:" وأنا أقر الآن بأن في الفلسفة ثلاث أجزاء لكل واحد منها مبادؤه القبلية (...): الفلسفة النظرية، والغائيات، والفلسفة العملية، وثانيتها هي أفقرها في مبادئ التعيين القبلي. وآمل أن أنتهي في فترة عيد الفصح من مخطوط هذه الدراسة الأخيرة، وسيكون عنوانها: نقد الذوق"[4].

يبدو من خلال النص الوارد أن أهمية مبحث الجمال لا تقل عن أهمية مبحثي المعرفة والأخلاق، حتى أنه يعتبر ملكة الشعور باللذة والألم حلقة وصل بين فلسفة الطبيعة وفلسفة الحرية. ومحاولة منه لمقاربة هذا المبحث خصص له أبحاثا ودراسات غاية في الأهمية، حيث رصد لذلك تحليلا لجملة المفاهيم التي كثيرا ما تُوظف في الدراسات الجمالية؛ كمفهوم الجميل والسامي والجليل، ... فبخصوص مفهوم الجميل يقول:" لكي نميّز الشيء، هل هو جميل أو غير جميل، فإننا لا نعيد تمثّل الشيء إلى الذهن من أجل المعرفة، بل إلى مخيّلة الذات وشعورها باللذة أو الألم. ومن هنا، فإن

[1] Toufik Cherif : Esthétique et critique chez Kant, thèse de diplôme des recherches approfondies en philosophie, faculté de Tunis, 1982-1983, p :05.

[2] أميرة حلمي مطر، فلسفة الجمال (أعلامها ومذاهبها)، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 1998، ص: 107 .

[3] إيمانويل كانط، نقد ملكة الحكم، تر: غانم هنا، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، 2005، ص:35 -36 .

[4] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

حكم الذوق ليس حكم معرفة، وبالتالي ليس منطقيا، بل جمالي؛ ونعني بذلك أن المبدأ الذي يعيّنه لا يمكن أن يكون إلاّ ذاتياً. وكل رابطة تمثلات، حتى رابطة الإحساسات، يمكن أن تكون موضوعية ؛ أما رابطة التمثلات بالشعور باللذة والألم فليست كذلك، وإنما تشعر فيها الذات بأنها متأثرة بالتمثّل"[1] يقدم كانط من خلال هذا القول تعريفاً أو بالأحرى تحديدا لمجال موضوع الجمال، بحيث يربطه أولا بالمخيلة، وليس بالذهن وإذا ما أردنا استرجاعه علينا تخيله بواسطة استشعار ما يخلّفه فينا من لذة أو ألم. وأما ثانياً فهو يميّزه عن ما هو منطقي الذي يكون موضوعيا ومستقلا عن الذات، بينما يكون المبدأ المعيّن لتمثلات الشعور باللذة والألم ذاتياً خالصاً. ومع ذلك يعتقد أحد الباحثين في مجال فلسفة الجمال وهو جوفروا Jouffroy بأن مسألة الجميل لم تُحسم بعد مثلما حُلّت مسألة الخير، بل مازالت عالقة بالنظر إلى طبيعة موضوع الجمال الذي يتماهى بشكل كبير مع الذاتية.[2]

2. خصوصية التجربة الجمالية عند كانط:

قدم كانط عرضاً عن الأحكام الجمالية المفكِّرة يقول فيه:" يُعتبر الشيء بالنسبة إلى الشعور باللذة إما مرضياً أو جميلاً/و جليلاً أو جيّداً بإطلاق، فالمُرضي كدافع للرغبة هو دوما من نوع واحد أياً كان مصدره والفارق النوعي في تصوره (في الحس أو في الشعور، من منظور موضوعي). لذلك يُعتمد في الحكم على تأثيره في النفس، على كمية الإغراءات فقط، وفي الوقت نفسه لا تُؤخذ في الحسبان سوى كتلة الشعور المُرضي؛ فلا تُفهم هذه إذاً إلا من ناحية الكم... "[3] يتحدث هنا عن الآثار التي تنجم عن الشعور باللذة تجاه موضوع ما، ويقصد به الرضا الذي هو شعور عفوي ليست به مفاهيم ولا مقدمات، إنه باختصار ظاهرة تنتج عن تأثير موضوع الجمال فينا.

ويقدم للجميل تصورا مختلفا عن المرضي لما له من خصائص تتعلق بالشيء أو موضوع الجمال والتي تجعله جميلاً، فيقول عنه: "أما الجميل فإنه على عكس ذلك يتطلب تصور نوعية معينة في الشيء تكون قابلة لأن تُفهم في ذاتها ويمكن إرجاعها إلى مفاهيم (علما بأنها لا تُعاد إليها في الحكم الجمالي)؛ إنه يثقف أيضا وذلك بما يعلّمنا في

[1] المصدر السابق، ص ص: 101 – 102 .

[2] Jouffroy : Cours d'esthétique, librairie de L. Hachette, Paris, 1845, p:02.

[3] كانط، المصدر السابق، ص:180 .

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

الوقت نفسه أن نراعي الغائية في الشعور باللذة."[1] يميّز كانط بين حالات الشعور باللذة، حالة الجميل الذي يرتبط بالخصوصية التي يتضمنها الشيء فتجعله يبدو جميلاً، وكذلك الأثر الذي يُخلّفه في النفس أو كما يسمى بالظاهرة. وحتى نحافظ على التفاصيل الكانطية في عملية أو آلية الحكم الجمالي، نقول أنه ينجم عن ارتباط المخيّلة بالشعور(الشعور باللذة أو الألم)، لهذا فنحن لا نحتاج إلى إعادة تمثّل الشيء واستحضاره للمعرفة. ومن أجل تحديد الطابع الخاص بالحكم الجمالي؛ وضع كانط أربع لحظات للوقوف على طبيعته:

اللحظة الأولى: " الذوق هو ملكة الحكم على شيء أو على ضرب من ضروب الامتثال بالرضا أو عدم الرضا خلواً من أية مصلحة، وموضوع مثل هذا الرضا هو الجميل."[2] إنها لحظة النزاهة والتعالي عن كل مصلحة؛ فشعورنا بالجميل ليس لأننا التمسنا فيه المنافع أو باعتباره يلائمنا، بل لأنه يرضينا حتى وهو غائب وبعيد المنال. وفي اللحظة الثانية يقرر:" الجميل هو ما يُرضي كلياً من دون مفهوم". وهي نتيجة توصل إليها الفيلسوف بعد بحث وتحليل استدعاه السؤال التالي: هل يسبق الشعور باللذة في حكم الذوق الحكمَ على الموضوع، أم يتقدم هذا عليه؟

يعتقد كانط كحل لهذه المسألة بأن الحكم على الموضوع لا يجب أن يخضع لأي شعور أو تصور مسبق، حيث أنه في مثل هذه الحالة يكون الشعور مجرد ملاءمة خالصة في الحواس تُملي على الذات تمثّل الشيء مما يجعل اللذة هنا قيمة شخصية، باعتبارها تتبع بشكل مباشر التمثّل الذي به يُعطى الموضوع، وهذا ما يغيّب عنها صفة الموضوعية. وعملية التمثّل في حكم الذوق - لكي تكون ممكنة- يجب أن لا تفترض قبلها مفهوماً معيناً، بل هي نتيجة للعبة الحرة كما يسميها كانط؛ أو رصد لحالة النفس لحظة تفاعل المخيلة مع الفهم، فنحن عندما نحكم على شيء ما بأنه جميل ليس لأنه يحمل في ذاته ما يجعله جميلاً؛ وبالتالي سأسمح ببناء مفاهيم عنه أي معرفة به تفرض علي أن أحكم عليه بالجمال. " وفي الحقيقة، لا يكون الجمال شيئاً بذاته ما لم يكن على

[1] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
[2] نفسه، ص: 110 .

علاقة بالذات"[1]. وعليه فلا يمكن أن يسبق الشعور باللذة الحكم على الشيء بأنه جميل.

وبخصوص اللحظة الثالثة يقول:" الجمال هو شكل غائية موضوع بحسب ما تمّ إدراكها فيه من دون تمثّل غاية".[2] يخلو حكم الذوق من أية غاية بالمفهوم الطبيعي، بمعنى أن الغاية المرتبطة به موضوعية ليست هي سبب وجوده، أو شرط إمكانه وهذا ما يؤكده في تحليله لملكة الحكم الغائية حين يقول:" تُظهر جميع الأشكال الهندسية التي نرسمها وفق مبدأ غائية موضوعية متنوعة، غالباً ما تُثير الإعجاب، وذلك لما لها من مؤهلات تساعد في حل مسائل كثيرة وفق مبدأ واحد ولحل كل واحدة منها بطرقٍ لا حدّ لتنوعها. وواضح أن الغائية هنا موضوعية وعقلية وليست فقط ذاتية وجمالية بحتة. وفي الواقع هي تعبر عن جاهزية الشكل لتوليد أشكال كثيرة تحقق الغاية المستهدفة وتُعرف بواسطة العقل."[3] وقد ميّز كانط بين غائية الطبيعة والغائية الموضوعية، حيث اعتبر أن الأشياء الموجودة في الطبيعة محكومة بالغائية؛ فهي غايات للطبيعة بالنظر إلى ماديتها وبُعدها التجريبي. وقد أسماها بالكائنات المنظَّمة لأنها لا يمكن أن توجد بلا غايات، هذه الأخيرة هي التي تحددها وتجعلها ممكنة (الغاية تسبق الكائن العضوي في صورة علّية؛ أي العلة تسبق المعلول). وهو ما يحدد المبدأ الموضوعي لملكة الحكم المعيِّنة(une faculté de juger déterminante) التي تحاول إثبات حقيقة الموضوع، بأن تبيّن الواقع الموضوعي لمفهوم تمّ قبوله سلفاً أي عن طريق المعرفة. أما في حالة أن يقوم العقل لوحده بتعيين استخدام ملكاتي المعرفية طبقا لخصائصها وبالشروط الجوهرية، سواء بالنسبة إلى مجالها أو إلى حدودها، فيكون حينها المبدأ الذاتي لملكة الحكم المفكِّرة (une faculté de juger réfléchissante).

إن ملكة الحكم المفكِّرة تعمل من أجل تحديد غائية كلية تحكم موضوعات الجمال بدون وجود غاية تجريبية مادية، وكأن كانط في هذه المسألة يريد أن يصل إلى إحدى قناعاته بخصوص الإله الكائن الكامل الذي يؤطر الموجودات في العالم حيث يقول:" فلا يبقى إذاً على الإطلاق سوى قضية تقوم على شروط ذاتية فقط، أي على شروط ملكة

[1] كانط، المصدر السابق، ص:120 .
[2] نفسه، ص: 142 .
[3] نفسه، ص: 303 .

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

الحكم المفكَّرة، بالانسجام مع ملكاتنا المعرفية؛ ولو أردنا التعبير عن هذه القضية دوغمائيا على أنها صالحة موضوعياً، لجاء قولنا: يوجد إله؛ ولكن في المقابل بالنسبة إلينا نحن البشر لا يُسمح لنا بغير الصيغة المحدودة القائلة: إننا لا نستطيع أن نفكر في الغائية ونجعلها قابلة لأن تُفهم إلا بأن نضعها في أساس معرفتنا للإمكانية الباطنة لأشياء طبيعية كثيرة."[1] وبهذا أبعد كانط فكرة غائية الحكم الجمالي عن التصور الفيزيقي لمبدأ الغائية، ليتمكن الفكر من الوصول إليها وذلك انطلاقاً من مبادئه المنظِّمة فحسب.

وفي اللحظة الرابعة من تحديده لحكم الذوق وفي رصده له من حيث الجهة (modalité)، يرى كانط أن :"الجميل هو ما يُعرف من دون مفهوم بوصفه موضوع رضى ضروري"[2]. وقد تبيّن لنا سابقاً بأن حكم الذوق يقوم على لعبة حرة للمخيلة مع الفهم، وفعلها (المخيلة) ليس مقلداً باسم قانون تداعي الأفكار، بل تكون مبدعةً (من حيث إنها تخلق أشكالاً حرةً لعيانات ممكنة).[3] ومن الضروري حريتها تلك لأنها لولم تكن كذلك لارتبطت بقانون معين، ونتج عنها بناء من المفاهيم؛ أي معرفة وهذا ما يتنافى مع طبيعة الحكم الصادر عنها. فحكم الذوق في هذه الحالة لن ينجم عنه رضى بالجميل، وإنما رضى بالخيّر أو الملائم أي أنه نفعي خالص. يقول كانط:" يقدّم نقّاد الذوق عادة الأشكال الهندسية المنتظمة، مثل الدائرة والمربع والمكعب،...إلخ على أنها أبسط نماذج للجمال وأكثرها بعداً عن أي شك؛ لكنها مع ذلك لا تُسمى منتظمة إلا لأننا لا نستطيع تمثّلها على غير ما هي عليه، أي على أنها مجرد عرض لمفهوم معين يفرض القاعدة على الشكل. وفي هذه الحال لابد أن يكون أحد الطرفين على خطأ: إما حكم النقّاد الذي ينسب الجمال إلى الأشكال المفكّر فيها؛ وإما حكمنا نحن، الذي يجد أن لابد للجمال من غاية من دون مفهوم. "[4] وعليه فملكة الحكم الجمالي عند كانط ليست تلك التي تستعين بمقولات سابقة تطبق فيها الكلي على الجزئي، وإنما تعتمد على حالات جزئية خاصة

[1] نفسه، ص: 352 .
[2] نفسه، ص:148 .
[3] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
[4] المصدر نفسه، ص: 149 .

وفريدة لتنتقل إلى ذلك الكلي الذي يخص كل حالة فردية بعينها[1]، فيترتب عن ذلك أيضا أحكاماً فردية تخص كل حالة من الحالات، وبالاعتماد على مبدأ الغائية الذي يحقق الوحدة والنظام بين عناصر عالم الطبيعة من جهة وعالم قوى النفس البشرية من جهة أخرى.

3. مفهوم الجمال وإشكالية الكمال الأخلاقي:

شغلت فكرة بلوغ الكمال في العلوم المعيارية كالأخلاق والجمال الفلاسفة المثاليين، سواء في تحقيق السعادة أو الخير الأسمى أو حتى اللذة. وفي حديثه عن طبيعة الغائية التي يقوم عليها حكم الجميل، والتي يصفها بالصورية أو الشكلية البحتة (وهو فحص لملكة الحكم الإستطيقي من حيث العلاقة)، في حين أن الغائية الموضوعية التي يتحدد من خلالها هدفاً معيناً، فيقول: " والغائية الموضوعية هي إما غائية خارجية، أي المنفعة، أو غائية باطنة وهي كمال الشيء. أما أن الرضا الناجم عن موضوع، وبموجبه نسميه جميلاً، فلا يمكن أن يقوم على تمثّل منفعته، فهذا ما اتضح بكفاية من الفقرتين السابقتين؛ ولو كان الأمر كذلك فلن يكون الرضا الناجم عن الموضوع مباشراً، وهذا هو الشرط الجوهري للحكم على الجمال."[2] يخلو مفهوم الرضا حسب كانط من أية منفعة بإمكانها أن تكون علة وجوده، فالجميل يترك اثره في النفس من دون أن يرتبط ذلك بأية مصلحة، "أما غائية موضوعية باطنة، أي كمال، فأكثر قرباً من صفة الجمال، ولهذا فإن بعض الفلاسفة المشاهير*[3] اعتبروا الجمال والكمال شيئاً واحداً، مضيفين مع ذلك القول : إذا فُكِّر فيه (الكمال) بشكل مشوّش. وإنه لمن الأهمية بمكان في نقد الذوق أن نقرر هل يمكن للجمال أن ينحل بالفعل في مفهوم الكمال؟"[4]

يتحدث كانط في هذا النص عن نوعين من الغائية الموضوعية: غائية خارجية أشار لها بالمنفعة، وغائية داخلية أو باطنة قال أنها كمال الشيء. وفي طرحه للسؤال الأخير دلالة على أنه قد يُبقي على رأي باومغارتن في ارتباط الجمال بالكمال. فالكمال

---

[1] أميرة حلمي مطر، مرجع سابق، ص:109 .

[2] كانط، المصدر السابق، ص ص:130 -131 .

* ويقصد بهم تحديدا ليبنيتز وبومغارتن مؤسس علم الجمال (وقد سبق تعريفه في الصفحات السابقة) حيث اعتبرا الإستطيقا علم مستقل، وهو منطق المعرفة الحسية الغامضة التي تدور حول الكمال، أي ربط الجمال بالكمال.

[4] كانط، المصدر الأسبق، ص: 131 .

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

(Perfection) هو الصورة النهائية لكل فعل إنساني، فإذا أصبح موضوعاً لمعرفة متميّزة ومنظمة أصبح يمثل الحق، وإذا تم تطبيقه على السلوك سُمي خيراً، أما إذا اتخذناه موضوعاً لشعورنا وإحساساتنا فحينها يصير جمالاً.[1]

وقد أبقى كانط – مع هذا- على فكرة الكمال في علاقته بالجمال، ولكن أضاف لها فكرة الغائية. وحتى نفهم التوظيف الكانطي للكمال لابد من العودة إلى فكرته السابقة عن الغائية بدون غاية. ورغبة منا في مقاربة المسألة عنده يجب أن نقارن موقفه مع موقف الفيلسوف العقلاني ليبنيز Leibeniz الذي اعتبر الكمال هو حصول اللذة أو المتعة في النفس، " الجمال هو كمال المعرفة الحسية "[2]، وما اللذة إلا شعور بالكمال أو الامتياز سواء في أنفسنا أو في الأشياء، كما أن الكمال هو نوع من التسامي. بينما رأى بومغارتن Baumgarten أن معرفة الجمال من المعارف الغامضة باعتبارها ترجع إلى الحس. ورغم قراءته لأعمال بومغارتن واهتمامه بفلسفة ليبنيز إلا أنه خالفهما في المسائل الإستطيقية، فبخصوص اللذة التي أشار لها الثاني حتى وإن كانت عقلية فإنها حسب كانط، تعد غاية يطلبها الإنسان قبل إصدار حكمه الجمالي، وبالتالي تكون سابقة عليه فيبدو حكما إكراهياً وغير نزيه. أما اللذة في الخبرة الجمالية فتتبع الحكم الجمالي؛ وتنجم عن ذلك التوافق بين ملكات النفس والتي يحددها في المخيلة والفهم؛ وكيفية تناولها الجمالي لصورة ما. وهي لذة فارغة من المحتوى ولا علاقة لها بالموضوع في حد ذاته، بل بالنفس لحظة إدراكه.

وقد حرص كانط على اختلاف موقفه عن هؤلاء الفلاسفة، بخاصة في ربطهم للجمال بالكمال. فقد عرّف هذا الأخير كهدف داخلي غائي، وليس في صورته القيمية أو كمطلق؛ وحتى في دراسته ككل لفلسفة الجمال لم يعره اهتماماً كبيراً اللهم إلا في رده على الفلاسفة. وانصب اهتمامه على الدراسة الترانسندنتالية؛ أي البحث في المقولات القبلية المطلقة التي تتحكم في الإستطيقا، شأنه في ذلك شأن النقدين السابقين.*وظل

[1] أميرة حلمي مطر، مرجع سابق، ص: 107 .

[2] Kulp, Oswald: Introduction to philosophy , psychology , logic, Ethics, Aesthetics and general philosophy, tr by W.B. Uslury, George Alen Union, 11th éd, London, 1927, p:82 نقلا عن رمضان الصباغ، المرجع السابق ص: 27 .

* إشارة إلى البحث الترانسندنتالي الذي خص به "نقد العقل الخالص" و" نقد العقل العملي" من أجل تحديد الشروط القبلية للمعرفة النظرية والمعرفة العملية على حد سواء.

بذلك هاجسه الأول هو البحث في شروط الإمكان، شروط إمكان الحكم الجمالي وتحديد الآليات التي بمقتضاها نسمي شيئاً ما جميلاً.

يقول كانط في تحليله لعلاقة الغائية بالكمال:" ولكي نحكم على موضوع الغائية الموضوعية، نحن دائماً بحاجة إلى مفهوم هدف، ومفهوم هدف باطني (...) يحتوي على مبدأ إمكانية الموضوع الباطنية. والآن مثلما أن الهدف بوجه عام هو ما يكون اعتبار مفهومه مبدأ إمكانية الموضوع نفسه، من أن يسبق ذلك مفهوم عنه، أي من أية طبيعة يجب أن يكون؛ وتآلف المختَلف في الشيء بغية الحصول على هذا المفهوم، هو كماله الكيفي." ويقصد به الصورة الكلية للموضوع أو ما يجب أن يكون عليه عموما وبلا تفاصيل، وما يمكن أن يميّزه عن باقي الموضوعات. «ويختلف عنه الكمال الكمي اختلافاً من حيث هو كمال كل من الأشياء من ناحية نوعه، وأنه مجرد مفهوم حجم (مفهوم الكلية)؛ وفي مفهوم كهذا يكون قد تم التفكير بما يجب أن يكون عليه الشيء، أنه معين، ويبقى السؤال فقط حول ما إذا كان يتضمن كل ما هو ضروري له بهذا الخصوص."[1] من الواضح أن فكرة الكمال عنده لم تكن في علاقة مباشرة مع مفهوم الجمال، وليست هدفاً له، وعلى عكس ذلك نجد أن الغائية أكثر قرباً منه. وإذا كان الكمال مفهوماً أنطولوجياً؛ فهذا يعني أنه يرتبط بمفهوم الله وفي المقابل، ستؤسس الغائية لمبادئ الكمال الأكثر صورية.[2]

إن مفهوم الكمال في الرؤية الكانطية لا يعني الإطلاق ولا هو الصورة الكاملة للشيء (الموضوع)، بل هو يقوم على جانب كيفي ويخص طبيعته، التي يحددها ذلك الانسجام والتناغم بين أجزائه المختلفة فتتوحد في وحدة تتماهى فيها تلك الفروق؛ وتبدو غير موجودة أصلاً. أما الجانب الكمي الذي يخص ما يجب أن يكون عليه الموضوع، باعتباره معيناً ففيه نجد تعيّنا للموضوع أي تحديداً له في الصورة التي يجب أن يكون عليها، وفي هذا تصور لغاية مادية مما يتعارض مع طبيعة الحكم الجمالي. لهذا يكتفي كانط بالجانب الشكلي أو كتصور للكمال الكيفي الذي يتوافق فيه المختلف في وحدة وائتلاف

[1] كانط، المصدر نفسه، ص: 131 .

[2] Brankel, Jurgen : Kant et la faculté de juger, L'Harmattan, Paris, 2004, p:26.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

دون تعيين لما يجب أن يكون؛ فتغيب الغاية الموضوعية ولا يبقى حينها في الذهن إلا غائية ذاتية تلازم تمثل الشيء الذي يُعطى في المخيلة.

بناءً على ما سبق تتضح لنا فكرة الكمال ليس كنهاية أو هدف تنتهي إليه الموضوعات والأشياء كحد تكتمل فيه، بل هو بهذا الاعتبار بداية لتمثل الموضوع بشكل ذاتي وبحت دون تطلع لأية غاية، إنه كمال تحققه وحدة الموضوع وتناغم أجزائه المختلفة. وبهذا يمكننا القول أن مؤلف "نقد ملكة الحكم" وبالمقارنة مع تاريخ فلسفة القرون 15، 16، 17 و18، فلسفة النهضة إلى العقلانية وأيضا مع تاريخ فلسفة الجمال، قد حرر الحكم الجمالي من مفهوم الكمال الذي لازمه طويلاً.[1] ولكن ماذا عن علاقة الجمال بالخير وما حدودها؟

4. مفارقة العلاقة بين الجميل والأخلاقي:

يقول كانط :" والآن أقول : الجميل هو رمز الخير الأخلاقي؛ ومن هذه الناحية فقط (لعلاقة طبيعية لدى كل إنسان، والتي يستطيع كل إنسان أيضاً أن يحمّلها كواجب لكل إنسان آخر) هو يُرضي ويدّعي توافق الجميع، وفي هذا تشعر النفس في الوقت نفسه بأنها ازدادت نبالة من نوع ما، وَسَمَت فوق مجرد الاستعداد للشعور باللذة بواسطة انطباعات الحس، وازدادت أيضاً تقديراً لقيمة الآخرين وفقاً لحكمة مشابهة في ملكة الحكم لديهم."[2] نفهم من هذا أن الجمال طريق نحو الفضيلة، حيث يعلمنا كيف نترفع عن بعض الاختلافات الموجودة بيننا كما يجعلنا نحترم الآخر لأنه يقاسمنا ذلك الشعور بما هو جميل. ويضيف أيضاً: "إنه المعقول الذي يصبو إليه الذوق، كما أظهرت لنا الفقرة السابقة، وهذا يعني ذاك الذي تتفق معه ملكاتنا المعرفية العليا نفسها، والذي في حال غيابه لا تظهر سوى تناقضات بين طبيعة كل منها والأخرى، والادعاءات التي يرفعها الذوق في وجهها"[3] في هذه الفقرة ينقلنا كانط إلى مستويات أخرى في سلم القيم، وكأنه يكشف لنا عن بعض تطلعاته، أو ربما أهمها والتي تتمثل في البعد الأخلاقي للجمال. وقد خصه بعنوان " الجمال كرمز للأخلاق" وهو يؤكد فيه بأن نزاهة حكم الذوق تتعزز وتتأكد أكثر عندما ندّعي على سبيل الافتراض بأن الجميع يشاركوننا ذلك

[1] Ibidem.

[2] كانط، المصدر السابق، ص:291 .

[3] كانط، المصدر السابق، الصفحة نفسها.

الحكم. ولم يعد يخصنا نحن فقط وفي هذه الحالة حتى لو تبعته لذة ما فستتحول إلى لذة عامة، فضلاً عن ذلك ستدرك النفس مراتباً عليا تسمو بها وترتفع عن مطالب اللذة الحسية التي كثيراً ما تلاحقها، كما أنها تتعرف على قيمة الآخرين في تقديراتهم الجمالية وفي امتلاكهم لملكة الحكم المُميّزة والدقيقة.

ويتابع في السياق نفسه قائلاً:" وفي هذه الملكة لا ترى ملكة الحكم نفسها -كما هي الحال في الحكم التجريبي- خاضعة لسيادة غريبة، سيادة قوانين التجربة: فهي في ما يخصّ موضوعات رضا خالص، تعطي هي لذاتها القانون، مثلما يفعل العقل بالنسبة إلى ملكة الرغبة؛ وترى نفسها متعلقة سواء بسبب هذه الإمكانية الداخلية في الذات، أو بسبب الإمكانية الخارجية لطبيعة تتوافق معها، بشيء في الذات نفسها وخارجاً عنها"[1] تستقل ملكة الحكم بذاتها فهي لا ترتبط بالتجربة ولا تخضع لقوانينها، لأنها تحمل قانونها بداخلها هذا الذي يصفه كانط وصفاً مميزاً حيث يقول فيه: "شيءٌ ليس طبيعة وليس حرية أيضاً، ولكنه مع ذلك مرتبط بأساس هذه الأخيرة، أي بما هو فوق المحسوس، تجتمع فيه الملكة النظرية مع العملية على شكل مشترك وغير معروف منا إلى وحدة."[2] بالإضافة إلى قيمة الخير التي يتضمنها التوافق والانسجام مع الآخرين، وكذا مشاركتهم الإحساس بالجمال، يتميز حكم الذوق بصفة الحرية وعدم الخضوع لأية سلطة خارجية. إنه يستمد قانونه وشرعيته من ذاته، وهو يشبّهه بالقانون الأخلاقي الكامن في الذات والذي لا يعود إلى القوى الخارجية. ومثلما تتفق المخيلة مع الفهم في حكم الذوق، يتحقق الانسجام بين حرية الإرادة وذاتها وفق قوانين العقل العامة في الحكم الأخلاقي. وتأكيداً منه على أن ملكة الذوق هي حلقة وصل بين ملكة المعرفة وملكة الإرادة، يُرجع كانط قانونها إلى أساس تجتمع فيه الملكة النظرية مع العملية. نستخلص من هذا أن الحكم الجمالي في تكوينه وماهيته يكون عصيا على أي تحديد ولا يمكنه أن يرتبط بأية علاقة نظرا لاستقلاليته وتنصله من كل تبعية، لكن هذا لا يمنعه من أن يتجه في غاياته القصوى نحو كل القيم العليا بما فيها القيم الأخلاقية الكونية. وهنا تكمن المفارقة الكانطية بين القول بانفراد الجمال وتحرره من كل تبعية

[1] المصدر نفسه، ص ص:291 -292 .
[2] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

على مستوى الطبيعة، والاعتراف بأن الجمال رمز للخير الأخلاقي على مستوى الأهداف والمآلات.

خاتمة:

في الأخير يمكننا القول أن كانط قد انفرد ومن خلال فلسفته في الجمال في إرساء جملة من المفاهيم والتصورات التي من شأنها وضع الحدود بين الأحكام المعرفية والعملية عن حكم الذوق، والتمييز بين حكم الذوق وغيره من الأحكام بوصفه ضروري وكلي. كما نجح في الفصل بين الفن والعلم والحرفة رغم ما بينها من التداخلات وذلك اعتمادا على قوة ودقة تعابيره الفلسفية، إلا أنه لم يتمكن من تحرير الأحكام الجمالية كليا من هيمنة الأخلاق وما ذلك إلا تعبير عن الأبعاد القيمية للجمال والفن. إن بلوغ الرضا والمسرّة هو الغاية التي يحققها موضوع الجمال، وهي لا تخرج عن كونها مجرد غاية خالية من كل محتوى حسي أو منفعة، وهو هاجس ظل يلازم كانط ولا يمكن إلا أن نصفه بأنه أخلاقي؛ وحتى نحن غالباً ما ننعت الأشياء الجميلة في الطبيعة أو في الفن بأوصاف ذات حمولة أخلاقية، كأن نصف الأشجار بالرائعة والألوان بأنها عفوية أو رقيقة وفي هذا دليل على أنها استهدفت بداخلنا مشاعراً مثيلة لتلك التي تثيرها فينا الأحكام الأخلاقية.

البيبليوغرافيا:

1. أميرة حلمي مطر، فلسفة الجمال (أعلامها ومذاهبها)، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 1998.
2. إيمانويل كانط، نقد ملكة الحكم، تر: غانم هنا، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، 2005.
3. فرانكلين – ل- باومر، الفكر الأوربي الحديث القرن 17، تر: أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، جمهورية مصر العربية، 1987 .
4. Brankel, Jurgen : Kant et la faculté de juger, L'Harmattan , Paris , 2004
5. Emile Krantz , Essai sur l'esthétique de Descartes , librairie Germer Baillière , Paris, 1882.
6. Jouffroy : Cours d'esthétique, librairie de L. Hachette, Paris, 1845.
7. Kulp, Oswald: Introduction to philosophy , psychology , logic, Ethics, Aesthetics and general philosophy, tr by W.B. Uslury, George Alen Union, 11th éd, London, 1927
8. Toufik Cherif : Esthétique et critique chez Kant, thèse de diplôme des recherches approfondies en philosophie, faculté de Tunis, 1982-1983.
9. Victor Cousin , Cours de l'histoire de la philosophie du 18eme siècle ,Tome 01, Pichon et Didier, éditeurs, Paris, 1829,